القاموس الفلسفي لڤولتير

بقلم الدكتور حسن حنفي

قد لا نحيد كثيرا عن الصواب اذا قلنا ان فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) من أعظم الفلاسفة على الاطلاق ، ومن أوسعهم أثرا ، ولا يعادله فى عظمته وأثره الا هيجل ، مع أنه لم يتخذ الفلسفة مهنة له ، ولم يستعمل مصطلحاتها أداة لتعبيره ، حتى أنه ليوضع دائما كجزء من تاريخ الأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر أكثر مما يوضع فى تاريخ الفلسفة الحديثة (١) ، مع أن فولتير على رأس فلاسفة التنوير يعد فى الحقيقة سبينوزا القرن الثامن عشر كما يعد سبينوزا فولتير القرن السابع عشر . وليس أدل على ذلك أيضا من تخصيص ارنست كاسيرر دراسة ممتازة عن فولتير وعصره بعنوان «فلسفة التنوير» باعتبارها أحد البواعث الأصيلة فى الشعور الأوربى ان لم يكن الباعث الأول فيه.

ويعتبر « القاموس الفلسفى » أهم عمل من أعمال فولتير التاريخية والأدبية والفلسفية اذ أنه يعتبر بحق قمة ما وصل اليه عصر التنوير من تقدم فكرى وحضارى ، ففيه نقد للطغيان كما هو الحال فى كتابات فنلون وفوبان وبواجيبير Boisguillebert ، وفيه كراهية للتعصب كما نجد عند بيل ، وفيه ادانة للحرب التى أدانها مونتنى وبسكال ولابرير، وفيه انكار للميتافيزيقا كما هو الحال عند جاسندى وفونتنل ، وفيه دعوة الى المساواة الطبيعية التى كانوا يدعو اليها - نظريا - مفكرو العصر الوسيط (٢) .

ولايستعمل فولتير الأسلوب الفلسفى الأكاديمى، بمصطلحاته ومفاهيمه ونظرياته ، بل يستعمل اللغة العادية التى يعبر بها عن أشد المذاهب الفلسفية اغراقا فى التجريد ، كما أنه لا يكتب كتابا فلسفيا بل يعبر عن افكاره بالرواية والمسرحية والمقال مثل بعض الفلاسفة المعاصرين .

---

(١) ويدل على ذلك تدريس فولتير والقرن الثامن عشر الفرنسى باكمله الذى يضم فلاسفة التنوير فى اقسام الادب الفرنسى بكليات الآداب، ولا يكاد يذكر فى اقسام الفلسفة .

(٢) يشمل القاموس الفلسفى المقالات التى نشرها فولتير فى «دائرة المعارف الفلسفية» دستور عصر التنوير ، وقد طبع طبعات عدة حوالى سبع طبعات اولها سنة ١٧٦٤ وآخرها سنة ١٧٧٤ وهى اكملها .

ويلجأ فى ذلك كله الى أسلوب السخرية ، والمدح على سبيل الذم ، والذم على سبيل المدح، ووضع الأسماء وتركيبها بحيث تدل بلفظها على مضمونها ، فاللاهوتى هو اللوجوماخوس Logomachos أى الذى يغرق فى الكلمات ويتصور أن لها سحرا وأثرا ، والانسان البسيط الذى لا يفقه فى اللاهوت شيئا هو دونداندك Dondindac أحد أسماء الأطفال فى القصص المصورة •

ويكفى القارىء أن يقرأ مقالا أو اثنين ، كما ينصح فولتير ، حتى يستفيد من القاموس ، ولا داعى لقراءته من أوله لآخره ، وأفضل الكتب ، على ما يقول فولتير ، هى ما قرأت حتى منتصفها ، وما تركت فى نفوس القراء نواة للتفكير ينسجون حولها ما يشاؤون ، أى أن فولتير يريد بث دعوة للتحرر العقلى يشارك فيها القراء ، اذ أن قضية التحرر الفكرى قضية عامة تهم الكاتب والقراء على السواء ، بل ان فولتير يطالب القراء بتصحيح مواقفه الخاطئة وتكملة مواقفه الناقصة ، فالحقيقة يلتزم الجميع بها ، ويعملون على كشفها ، ولكن لا بد من اتفاقهم جميعا على حد أدنى وهو « التنوير » ، وهى الصياغة الاجتماعية للنور الفطرى الذى تحدث عنه ديكارت وسبينوزا من قبل ، فقد ظل النور الفطرى فى القرن السابع عشر منهجا للمعرفة ، وأصبح فى القرن الثامن عشر ثورة اجتماعية بعد أن أصبح الفكر موجها للواقع • لقد طالب فلاسفة النور الفطرى بحق الفكر وطالب فلاسفة التنوير بحق الفكر فى توجيه الواقع ، وبأن يعيشوا فى عالم يحكمه الفكر • أما العامة فهم بعيدون كل البعد عن التنوير ، وكذلك الفلاسفة الذين اتخذوا الفلسفة مهنة لهم لأنهم لن يتخلوا عما يتكسبون منه • « ان الناس لا يقرؤون على الاطلاق، يعملون ستة أيام ويذهبون الى الملهى فى اليوم السابع » •

ويهدف القاموس الفلسفى الى تحقيق ثلاث غايات : الأولى رفض عقيدة العناية الالهية التى تدور حولها الديانة المسيحية ، وبالتالى رفض كل ما يتعارض مع العقل فى ميدان العقائد أو مايتعارض مع المنفعة فى مجال السلوك أو مايتعارض مع الأخلاق فى مجال العلاقات الانسانية • والثانية هدم الفلسفات الميتافيزيقية والنظريات الفلسفية التى هى أقرب للمتاهات العقلية ، والمناداة بالمعرفة الحسية وبالرؤيا المباشرة للوقائع على ما تقوله الفلسفة الانجليزية التقليدية التى تشبع بها فولتير• والثالثة الدعوة الى السلام ، ومهاجمة الحروب الدينية أو الدنيوية ، وشجب التعصب الدينى والفلسفى ، وادانة القوة فى تنظيم العلاقات بين الأفراد أو بين الدول • وفى الحقيقة ، يتجه القاموس الفلسفى كله نحو اثبات الغاية الأولى ، وهى اعادة بناء الدين على أساس عقلى ، وهو مشروع الفلسفة الحديثة عند ديكارت وسبينوزا ، ومالبرانش ، وليبنتز ، وكانط ، وهو المشروع الذى يهدف الى القضاء على الأسطورة وعلى السر وعلى كل ما يند عن العقل ، وبالتالى يحاول فولتير اعادة كتابة تاريخ المسيحية كما حاول رينان بعد ذلك ، حتى غطى هذا الهدف على الهدفين الآخرين •

أولا : المسحية موضـــوع لتـــاريخ الأديان المقارن :

يدرس فولتير المسيحية كجزء من تاريخ الأديان المقارن ، فلا يفـرق بين دين موحى به كالمسيحيه واليهودية والاسلام ودين تاريخي محض كالبوذيه أو الكنفوشيوسية والبرهمانية وغيرها من الديانات الاسيوية والافريقية • لقد خضعت المسيحية لنفس القوانين التي خضع لها كل دين انساني تاريخي ، ولا تفترق عقائدها عن باقي العقائد المعـروفة في الديانات المجـاورة في العـراق وفارس واسـيا الصغرى ، وكأن الروح الانساني لها بناء واحـد على ما يقول البنـائيون • لذلك التجأ فولتير في دراسته لنشأة المسيحية الى علم الاساطير المقـارن والى تاريخ الأديان المقارن ، وبين أن ما حدث في المسيحية قد حدث من قبل في الديانات السـابقة كلها والتالية لها ، وأن ما بها من عقائد لا يختلف عما بغيرها من أسـاطير لتفسـير الكون ، ومن ثم كانت المسيحية جزءا من تاريخ الأديان ، أو جزءا من تاريخ الحضارات القديمة • أي أن فولتير يرد نشأة المسيحية ، وكل دين ، الى عوامل تاريخية وجغـرافيـة محضـة حكمت تطـورها وخلقت عقائدها ، ويراها جـزءا من التـاريخ الدينـوى L'histoire profane وليس جزءا من التاريخ المقدس L'histoire sacrée

فمثلا في مقاله عن « ابراهيم » يحـاول فولتير أن يعرف من هو ابراهيم هذا الذي تنتسب اليه جميع الديانات ويدرسه بالمنهج التاريخي الصرف ، يحـاول التعرف على أصله ونشـأته وبيئته كأية شخصية دينية في أي دين ، ويرفض تفسير حياة ابراهيم بتدخل الروح القدس أو بتدخل العنـاية الالهية ، بل يراها حياة قد خضعت لعوامل تاريخية وجغرافية ونفسية محددة وهي نفس العوامل التي يخضع لهـا البشر أجمعين ، أنبيـاء كانوا أم غير أنبياء • كما يرفض فولتير فكرة التسلسل الوراثي لشـعب ما من نبي معين ، فلا العـرب من نسـل اسماعيل ، ولا اليهود من نسل يعقوب • واذا كان المتدينون يرون في هذه السلالة ارثا للنبوة وحملا للفضـائل عبر التـاريخ فان فولتير يرى فيها ارثا للرذائل ، ويرى أن هذه الشعوب القديمة كانت تقـوم على الغـزو والسـلب والنهب واحتـلال الأراضي • لقد عرف ابراهيم باسم برام Bram وأبرام Abram في الهند وفارس ومنه خرج لفظ براهمـا Brama عند الهنـود • وهكذا يلغي فولتـير أي فـرق بين دين الوحي وديـن التاريخ ، فكلاهما ينبثقان من بناء انساني واحـد وهو التـأليه ، ومن أسـاس نفسي واحـد وهو الأسـطورة • ومن ثم ، لا سـيادة لشـعب ينتمي لدين معين على شعب آخر ينتمي لدين آخـر ، فلا اليهود مختارون ولا هم معلمو الانسانية ، بل ان الشـعائر اليهـودية في معظمها مقتبســة من الشـعوب المجـاورة لهـا خاصـة من المصريين والكلدانيين والأشـوريين والفينيقيين • وكذلك نجد قصة « آدم » في الديانات الأخرى • بل ان أفلاطـون ، على ما يروى فولتير ، قد جعله رمزا للانسان الذي اجتمعت فيه الذكورة والأنوثة معاء لقد تصور الهنود أن « أديمو » Adimo ويعني « الذي يولد » هو أول الخلق وأن « بوكريتي » Pocriti وتعني « الحياة » هي امرأته خلقت من ضلعـه ، والديانة الهنـدية أقدم من الديانة اليهودية . لقد خلق الهنود أولا ثم قلد اليهـود ثانيا .

وتشترك الأديان جميعا ، بالرغم من تنوعها ، فى حقيقة واحدة وهى التشبيه والتجسيم فالاله عند البعض ذو لحية كبيرة وعند البعض الآخر ذو قرنين طويلين ، وعند فريق ثالث على رأسه تاج من نور على ما يقول بعض الشيعة . وفى ذلك يقول فولتير : اذا كان الله قد خلق الانسان على صورته ومثاله فان الانسان قد أرجعها له ، أى أن الانسان أيضا قد تصور الله على صورته ومثاله . يؤمن الصينى بأن الله هو السماء ويؤمن المسيحى بأن الله هو خالق السماء والأرض ولا فرق بينهما ، فكلاهما يتصور الله مادة أو متعلقا بمادة •

ولا يفرق فولتير بين تمثيل الحقائق الدينية بالصور وبين عبادة الأصنام ، فكل دين لديه ينمو نموا حسيا ويقوم بالضرورة على التشبيه والتجسيم ، ويحبذ فولتير النظرة الاسلامية فى تحريمها للصور والتماثيل وتحطيم ابراهيم للأصنام • وقد نشأت المشكلة داخل اللاهوت المسيحى ، وكان هناك أعداء التصوير وأنصاره وعقد لذلك مجمع نيقية الثانى • ولا تفترق اليهودية عن المسيحية فى الاعتماد على الصور ، وتصوير الله بمظهر حسى أو فى التضحية بالبشر من أجل الله كما ضحى يفتاح بابنته ، ويستشهد فولتير بعبارة ماكسيم المادورى فى خطابه الى أوغسطين : « انه لانسان فظ غبى هذا الذى يشك فى وجود اله عظيم أزلى لا نهائى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » • لذلك كان الفلاسفة الرواقيون على حق عندما تحدثوا عن اله واحد ، فقد قال أبيكتيتوس « الله قد خلقنى، وهو بداخلى ، وهو فى كل مكان ، هل يحق لى أن أدنسه بأفكارى البذيئة أو بأفعالى الظالمة أو برغباتى الدنيئة ؟ ان واجبى هو أن أشكر على كل شىء وأن أثنى عليه وألا أتوقف لحظة عن مباركته الا اذا توقفت عن الحياة »• وكذلك كان ماركوس أوريليوس يعتقد باله شامل •

ثانيا : من العقائد الاسطورية الى الاخلاق العملية :

يرى فولتير أن معظم العقائد فى الأديان هى نسيج من الأساطير ووضع من الجماعات الدينية الأولى ، ويطبق ذلك على المسيحية وعلى الديانات الأخرى على السواء •

فعقيدة التثليث لا توجد فى الأناجيل فضلا عن أنها تستعصى على الفهم ، وأن القول بثلاثة أشخاص وجوهر الهى واحد هو ادخال خطأ شنيع فى دين المسيح وترويج للشرك • ان التميز بين الشخص والطبيعة أو بين الشخص والماهية أو بين الشخص والجوهر لا وجود له فى الأناجيل، وعلى العاقل أن يمحو من ذهنه ومن الانجيل هذه الألفاظ : التثليث ، الشخص ، الماهية ، الجوهر ، التجسد ، التولد ، الفيض ، الصدور ، الأقنوم •• الخ • وشك فولتير فى هذه الآيات المشهورة فى رسالة يوحنا الأولى عن التثليث (٨ ـ ٩) « لأن الشهود فى السماء ثلاثة : الآب ، والكلمة ، والروح القدس ، وهؤلاء الثلاثة هم واحد ، والشهود فى الأرض ثلاثة : الروح ، والماء ، والدم ، وهؤلاء الثلاثة فى واحد » • فلا يعقل أن يتحدث يوحنا عن التثليث فى رسالة ولا يذكرها مطلقا فى انجيله • ولما كانت هذه العقيدة لا وجود لها فى الأناجيل الرسمية أو حتى المنحولة ، كان

أعـداء التثليث على حق ، ولـكن كان جـزاؤهم الطرد من المجامع الكنسية حتى ولو كانت الأغلبية لهم • هكذا يتحدث فولتير فى مقاله عن « أعداء التثليث » •

وفى مقاله عن « آريوس » يبين فولتير أن هذا القسيس كان على حق عندما وجد أن التثليث لا يمكن فهمه ، وآثر تصور المسيح كانسان ، وأثبت له طبيعة واحدة ، هى الطبيعة الانسانية ، وأن كل هذه التساؤلات : هل المسيح هو الكلمة؟ واذا كان هو الكلمة ، هل صدر عن الله فى الزمان أو قبل الزمان ؟ واذا صدر عن الله هل هو خالد مثله ، متحد معه فى الجوهر أم له جوهر مماثل؟ هل هو متميز عن الله أم لا ؟ هل هو واقعة أم متولد ؟ هل يمكن أن يتولد عنه شىء ؟ هل له أب أم له قوة التوليد دون أبوة ؟ هل الروح القدس واقعة أم متولدة ، صادرة عن الأب أم عن الأبن، أم عن كليهما معاً ؟ هل يمكن أن يتولد عنها شىء؟ هل هى متحدة فى جوهرها مع الآب والأبن ؟ وكيف لا يمكنها ، وهى المتحدة بالآب والأبن ، أن تقوم بنفس الأفعال التى يقوما بها ؟ كل ذلك رآه آريوس غير مفهوم ، خاصة وأن الرقاب قد تطايرت اذا أخطأت الرؤوس فى الجواب !

كذلك ينكر السوسينيون Sociniens الوهية المسيح كما يفعل المسلمون ، ولا يتصورون فكرة الله الذى يصبح انسانا ، ويعتمدون فى ذلك على شهادات اوزب وجيستان وترتيليان ، بل على أقوال بولس الذى لم يسم يسوع المسيح الها على الاطلاق • ومعروف فى تاريخ الأديان أنه كانت هناك عمليات تأليه مستمرة ، فقد كان لاوتسى شيخ قرية قبل أن يصبح الها ، وكان براهما شيخا فاضلا قبل أن يصبح الها •

يؤكد فولتير اذن أن ألوهية المسيح من خلق الجماعة المسيحية الأولى ومن تقنين الكنيسة ومن قرارات البابوات ، مع أن آباء الكنيسة الأولى فى القرون الثلاثة الأولى لم يؤلهوا المسيح واعتبروه مجرد انسان : « لقد كان تفكير آباء الكنيسة مماثلا لتفكير القديس بولس ، ومن الواضح أنه خلال ثلاثمائة سنة كان المسيح مجرد انسان ، تصور أنك مسيحى فى هذه القرون الثلاثة الأولى ! » •

وقد أعطى لقب « المسيح » فى العهد القديم للمؤمنين ولغير المؤمنين ، للأنبياء وللملوك، وأطلقه كتاب الأناجيل على يسوع الذى يعنى المخلص ، مع أنه لا يوجد نص واحد فى العهد القديم يطالب بالايمان بالمسيح • أى أن فولتير يتحدث عما يسميه علماء النقد التاريخى للكتب المقدسة توجيه الحاضر على أساس الماضى أو شرح الماضى على أساس الوقائع الحاضرة ، أى تصوير المخلص على أنه المسيح ، ورؤية المسيح على أنه المخلص • لقد ظن اليهود أن المسيح قد أتى فى شخص حزقيا على ما يقول حلل Hillel ، ومنهم من ينتظره حتى الآن ، ثم أسقط المسيحيون على يسوع أفكارا أبعد ما تكون عنه ، فتحدثوا عن طبيعته وألوهيته ، وجعلوه مخلوقا عجيبا غريبا ، والمسيح نفسه لم يتحدث عن ألوهيته ، بل كان يهدف الى اقناع الآخرين بالسر الذى يند عن العقل حتى يؤمنوا ، واذا أطلق على المسيح لقب « ابن الله » فى الأناجيل فذلك لا يعنى أكثر من كونه انسانا خيراً •

والحقيقة أن كل المناقشات حول هذه العقائد تضر أكثر مما تنفع ، ولا يبغى الدين أكثر من الاحسان والعدل • ففى مقاله الطو[illegible] عن

« المسيحية ، دراسة تاريخية » يؤكد فولتير أن هناك فرقاً كبيراً بين ما قاله المسيح وبين ما يعرف باسم المسيحية ، فالمسيح لم يدع الى عقائد بل الى الأخلاق الفاضلة ، لم يؤسس عقائد ، ولم يقم دينا ، ولم يسن شعائر أو طقوسا ، وهى الدعوة المشهورة التى تبناها هارناك والبروتستانتية الليبرالية بعد ذلك فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، والتى ينتسب اليها كل فيلسوف مسيحى عقلى مثل كانط أو روحى مثل برجسون ، وهى الدعوة التى نشأت فى الفلسفة الحديثة ابتداء من ديكارت ومالبرانش وليبنتز وسبينوزا ، والتى تبغى تحويل المسيحية من دين عقائد الى دين عقلى أو من دين أسطورى الى دين فلسفى • لقد كان الجو العام الذى نشأت فيه المسيحية جوا خلقيا، وكانت الفرق اليهودية الثلاث: الفريسيون، والصدوقيون ، والأسينيون تهدف الى البحث عن أسلوب قويم فى الحياة ، خاصة الفرقة الأخيرة ، كما كان هناك المعالجون الروحيون Thérapeutes الذين يدعون الى اصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس ، ومنهم خرج تلامذة يوحنا المعمدان واليهم ينتسب المسيح نفسه •

ان الاخلاق تشجب كل جدل ، وان كثيرا من الموضوعات هى فى الحقيقة موضوع عمل اكثر منها موضوع نظر ، وتوجيه أكثر منها حقائق نظرية، فلا يهم معرفة الفرق بين الفضل الفعال efficace والفضل المصاحب Concomitante (١) بقدر ما يهم السلوك والاقدام على الفعل : « ان الفضيلة ليست موضوع جدل أو نقاش ، وأنها تأتى من الله ولكن بحوث النزاع حول ظنيات من صنع البشر • ان كل مناقشات مجمع نيقية حول طبيعة المسيح لا تساوى شيئاً لأنها لم تهدف الى الشىء الحقيقى وهو الأخلاق • كذلك ، لما كان من المستحيل أن يعرف أحد الاجابة عن هذه الأسئلة التى تدور حول طبيعة المسيح ، فكفانا من المسيحية أن يكون كل انسان عادلا وعاقلا، وفرق شاسع بين الكلمات وبين الأخلاق العملية ، وفرق كبير بين الأسرار والفضائل : « هل تريدون أن يكون الدين المسيحى مجرد خليط من السفسطة ، أمن أجل هذا أتى المسيح ؟ كفوا عن الجدل ، اعبدوا ، اخلصوا ، تواضعوا ، أطعموا الفقراء ، أصلحوا بين العائلات بدل أن توقعوا البلاد كلها فى مصائب الشقاق » •

---

(١) يشير فولتير هنا بسخرية الى الاختلافات الكبيرة فى الرأى حول تحديد معنى الفضل الالهى ، والى الانواع المتعددة من الفضل الالهى كما أشار اليها اللاهوتيون ، والخلافات التى دبت بينهم حول هذا الموضوع •

والمقصود بالفضل الفعال عند اللاهوتيين هو الفضل الالهى الذى لا يمكن للانسان أن يرفضه، بل لا يلزم أن يطلبه ، وذلك فى مقابل الفضل الكافى suffisante الذى يستطيع الانسان قبوله أو رفضه •

أما الفضل المصاحب concomitante، الذى يسميه توما الأكوينى بالفضل اللاحق subséquente ، فهو الفضل الذى يصاحب الايمان ويكون معتمدا أو متوقفا عليه ، وذلك فى مقابل الفضل السابق prévenante ، وهو الفضل الذى يعطيه الله للمؤمنين والضالين معا ، أى الهداية •

ولكن التفرقة المشهورة فى اللاهوت المسيحى هى التفرقة بين الفضل الفعلى actuelle ، وهو هبة من الله يتطابق فيها العقل والارادة مع موضوع متعال ، والفضل المعتاد habituelle ، وهو حالة حب لله ومشاركة فى الطبيعة الالهية من حيث ان الانسان مخلوق ، وهو مايعنيه الصوفية بتفرقتهم بين الرضوان والرضا •

(انظر : توما الاكوينى :

S.T., I, 2, q. iii

والذى يهم فى مسألة خلود النفس أو فنائها ليس الاعتقاد بأحد النظريتين بل اقامة الحياة الفاضلة ، فالله هو العدل الاسمى . لم يعرف القدماء خلود النفس بل أمروا باحترام الآباء ، وحرموا السرقة والكذب والزنا وقتل الأبرياء وهى اخلاق لا تقوم على جزاء أو عقب . وفى المناقشة التى يتخيلها فولتير بين كو (الذى ينكر خلود النفس) وكوزو (الذى يثبت خلود النفس) يعلن كو فى النهاية : « أريد أن أفعل الخير لنفسى وأفعله أيضاً لارضاء الموجود الأعظم. لقد اعتقدت انه يكفى أن تكون نفسى عادلة فى هذا العالم وآمل أن تكون سعيدة فى عالم آخر ، وانى أرى أنها عقيدة حسنة للشعوب والحكام » . أى أن الايمان بالأخلاق الدينية ليس الا ايمانا للعوام أو وسيلة للحكام من أجل السيطرة على الشعوب . ويذكر فولتير أيضا « يؤكد القديس توما الأكوينى أن القديسين الذين بعثوا وقت المسيح سيموتون من جديد حتى يبعثوا معه ، وهى الفكرة الشائعة ، وكل هذه الأفكار غريبة على الأخلاق. يجب أن يكون الانسان خيرا سواء اذا بعثوا مرتين أو لم يبعثهم الله الا مرة واحدة . لقد ظهرت صياغة العقيدة مؤخرا ، وأعترف بذلك ، أما الفضيلة فهى أزلية » .

ان الفضائل الحقيقية هى التى تقدم فائدة الى المجتمع ، فلاعتدال فيه محافظة على الصحة ، والاخلاص والتسامح فيهما ابقاء على العلاقات الاجتماعية ، أى أن فولتير يمحو عن الفضائل الأربع المشهورة فى العصر الوسيط : الاعتدال ، الشجاعة ، الحكمة ، العدالة كل أساس دينى ويجعل لها فائدة مباشرة فى الحياة العملية. فالدين هو الحياة ، والحياة هى رعاية لمصالح الناس .

وفى مقاله عن « المادة » يذكر فولتير جميع المناقشات التى تدور حول طبيعتها والاختلافات بين المذاهب الفلسفيه المتعددة ، قديمة أم حادثة، ذاتيه حسية أم موضوعية شيئية ، مقسمة أم غير مقسمة ، ويقول « لحسن الحظ ، ان أى مذهب اعتنقناه لن يسىء الى الاخلاق ، فماذا يهم أن تكون المادة مصنوعة أو منظمة ؟ الله هو سيدنا الأعظم ، ويجب أن نكون فضلاء سواء خلقنا فى فوضى ثم نظمها أم فى فوضى مخلوقة من عدم . ان أية نظرية ميتافيزيقية من هذه النظريات لا تؤثر فى سلوكنا فى الحياة . هناك جدل لا يتعدى كونه كلاما عقيما يثار على الموائد ، ثم ينسى كل فرد ما قال ، ويذهب حيث توجد مصلحته والى ما يرتضيه مزاجه » .

لذلك يعتبر فولتير كل ما قيل فى العهد القديم حول الأنبياء من قبيل الأساطير الشعبية ، فهم أنصاف آلهة كأبطال اليونان ، يقتلون ويسرقون ويخدعون ويخطفون نساء الغير . فقد قتل داود أحد أصدقائه للاستيلاء على امرأته ، وحاك المؤامرات للاطاحة بمنافسيه . ويدافع فولتير عن مقال « داود » الذى كتبه بيل فى قاموسه الفلسفى ويعتبره فولتير شرف الانسانية والذى اضطهد لأنه لم يمدح داود ولم يثن على جرائمه وقسوته. بل ان بنى اسرائيل عاملوا أنبياءهم بنفس القسوة والفظاظة ، فقد خلع الملك اماسياس أسنان النبى عاموس ، وجلد النبى حزقيال ، ونشر النبى أشعيا .

ويدافع فولتير عن أخلاق الرواقين وأخلاق الفلاسفة ويرفض الفكرة القائلة بأن المسيحى لديه أخلاق أما الوثنى فلا أخلاق له . لقد

اشتهر الرواقيون بأخلاقهم ، واشتهر المسيحيون بلا أخلاقياتهم والفيلسوف هو الداعية للأخلاق ، ومن ثم كان كنفوشيوس أعظم فيلسوف ، بل ان الديانات الشرقية فى صميمها دعوة خلقية ، فبالرغم من مهاجمة فولتير الشعوب التى ما زالت تخضع للأساطير والتى يسودها روح التعصب، الا انه يشجب كل مظاهر العنصرية التى بدأت فى القرن الثامن عشر بعد التعرف على الشعوب الأفريقية والآسيوية وتصويرها على أنها أقل حضارة وبالتالى أقل قيمة من الشعوب الأوربية ويبين فولتير أن حضارة الصين القديمة ومبادئها الاخلاقية لا تقل قيمة عما هو موجود لدى الأوربيين فى كتبهم المقدسة أو فى مذاهبهم الفلسفية ، ففى مقاله عن « الصين » ينقد فولتير هؤلاء المبشرين ، خاصة الجزويت ، الذين يذهبون الى الصين ويدعون نشر المسيحية أو تحضير الشعوب المتأخرة ، مع أن الصينين شعب يؤمن بالله على نحو أفضل من ايمان المبشرين أنفسهم اذ يظهر الله لديهم فىالأخلاق، وكانت نظمهم فى الحكم أقوم من تلك النظم التى عاش فيها المبشرون .

وأخيراً يذكر فولتير أن الدين الوحيد الصحيح الناتج من استعمال العقل هو التنزيه المطلق الذى يظهر فى الأخلاق العملية ، وهو الايمان بالألوهية الحالة فى الطبيعة والتى تظهر فى ممارسة العدل ، أو الايمان ببعض المبادىء التى لها أثر فى الحياة العملية مثل : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » أو « عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به » .

ثالثا : من المسيحية التاريخية الى الدين الشامل :

لقد حاول جميع الفلاسفة فى العصر الحديث القضاء على الطابع الخاص للمسيحية باعتبارها دينا متميزا يدور حول وقائع معنية لا تتكرر الى الأبد ، وتنحصر فى شخصيات معينة مقدسة فى أعمالها وحياتها وموتها ، حاول الفلاسفة القضاء على هذا الطابع الخاص particularisme واعطاءها طابعا شاملا ، أى تحويلها الى دين شامل يقوم على العقل . لذلك يفرق فولتير كما فعل سبينوزا وكانط من قبل ، بين المسيحية التاريخية والدين الشامل ، الأولى وليدة ظروف تاريخية معينة لا أثر فيها للنقل أو العقل ، والثانية دين يقوم على العقل والنقل معا .

لقد نشأت العقائد وتطورت بطريقة تاريخية محضة ، كل جماعة تضيف صياغة جديدة حتى نصل الى صياغة مجمع نيقية الأول فى القرن الرابع ، يقول بطرس فى الجمعية : « أومن بالله الآب القادر على كل شيء » فيقول أندريه : « وبيسوع المسيح » ، ثم يضيف يعقوب : « الذى ولد بفعل الروح القدس » . أو يقول بطرس : « أومن بالله الآب القادر على كل شيء » ، فيضيف يوحنا « خالق السماء والأرض » ، ثم يضيف يعقوب : « أومن بيسوع المسيح ابنه الوحيد والهنا » . لم تظهر هذه الصياغة النهائية قبل القرن الرابع بعد أن عاشتها الجماعة المسيحية الأولى بقلبها . أما ما قبل ذلك من نزول المسيح الى جهنم وما قيل عن جماعة القديسين فلم يكن له وجود فى هذه الفترة ، ولم يذكر فىالأناجيل أو فى أعمال الرسل أن المسيح قد نزل الى جهنم.

ان الذى طمس معالم دين المسيح ، على مايقول ابن حزم أيضا فى الفصل ، هو بولس، هذا الفقيه اليهودى الفريسى الذى تعلم فى مدرسة جماليل Gamaliel الذى تعلم بدوره على يد حلل Hillel وهى المدرسة اليهودية المشهورة بتفسيرها الرمزى . ويقال ان بولس قد ترك أستاذه لأن هذا الأخير رفض أن يزوجه ابنته فخرج على اليهودية واستعمل المنهج الرمزى الذى تعلمه ، واستغل كل ثقافته اليهودية لتأييد الدين الجديد ولرفض تراث آبائه وأجداده بعد أن قطع كل صلاته بهم ، فكل ما ظنه اليهود من خصائص لشريعة موسى اعطاه بولس للمسيح ، فلم يعد الخلاص ممكنا بتطبيق أحكام الشريعة بل بالايمان بالمسيح حتى بلا عمل يصاحبه ، ولم يعد التحول للشريعة بل أصبح للمسيح الى آخر ما يقوله بولس فى رسالته التى الى أهل رومية وفى رسالته الى العبرانيين . ولذلك حق للعبرانيين اتهامه بأنه أراد هدم شريعة موسى . لذلك أصبحت صورة بولس فى أذهان الناس متعددة : فهو مواطن رومانى ، يهودى خائن ، مسيحى متعصب ، حوارى غيور .. الخ .

ولفظ « مسيحى » متأخر للغاية لم يظهر قبل أواخر القرن الأول وأوائل الثانى ، أى أن المسيح لم يترك وراءه دينا اسمه « المسيحية » ولم يسم أنصاره « مسيحيين » ، هو لفظ تاريخى محض يدل على فرقة أو جماعة وليس على دين ، وكان المسيحيون يسمون أيضا جليليين ، (من الجليل) أو ناصريين (من الناصرة) ، ثم قام الحواريون وأسسوا كنيسة رغبة منهم فى اقامة مؤسسات ونظم لتحفظ الدعوة ولتجمع المؤمنين ، ثم تشعبت الكنائس ، وانفصل المسيحيون عن اليهود . بعد ذلك أصبحت المسيحية جزءا من الامبراطورية الرومانيه . فكل ما أعطى للامبراطور من قبل أعطى بعد ذلك لرئيس الكنيسة ، وتحول المعبد الرومانى بصوره وتماثيله وقربانه وأضاحيه الى كنيسة ، ودخلت الأساطير الرومانية الفكر الكنسى وأصبحت لاهوتا مسيحيا ، ثم وجد أباء الكنيسة فى أفلاطون ضالتهم لأنه اشراقى أسطورى مثلهم .

أما المجامع الكنسية Conciles فهى مجموعة من الأخطاء لأنها مجرد مجتمعات بشرية ، وان تعارض قراراتها لايدل على ثراء الايمان كما يقول اللاهوتيون بل يدل على الظنيات التى تعكف عليها ، وان كل ما أصدرته هذه المجامع من قوانين لأبعد مايكون عن مصلحة البشر . ويضرب فولتير أمثلة عديدة على ذلك ففى مجمع نيقية الأول قرر المجتمعون ألوهية المسيح . كان هناك فريق من أنصار الطبيعتين ، وفريق ثان من أنصار الألوهية الأزلية للمسيح ، بينما كان آريوس من أنصار الطبيعة الانسانية للمسيح ، وكان ألفان من المجتمعين مع آريوس واثنان ضده ، ومع ذلك قررت الروح القدس أن آريوس على خطأ وأن المسيح اله ! وفى مجمع قسطنطينية تم شرح صيغة مجمع نيقية وزيد عليها صيغة فى الروح القدس وجاء المجمع الثالث ، مجمع أفسوس ، وقرر أن مريم أم الاله ، وأدين الأسقف نسطوريوس ، وهو الذى اضطهد الفرق الأخرى من قبل، لانكاره ألوهية مريم ، وينبهنا فولتير الى كل ذلك بقوله : « لاحظ هنا جيداً ، أيها القارىء ، أن الأنجيل لم يقل كلمة واحدة عن اتحاد الجوهر فى الكلمة أو عن عظمة مريم لكونها أم الاله أو عن المناقشات الأخرى التى اجتمعت المجامع الكنسية المعصومة من أجلها ! » وبالرغم من أن مجمع قسطنطينية

قد حرم الصور ، وهي أيضا محرمة في شريعة موسى ولم يقل المسيح شيئا عنها ، فقد أتى مجمع نيقية الثاني فأقرها بناء على طلب الامبراطورة ايرين • وفي مجمع لا تران الأول أدين كل من قال ان الكنيسة غنية •• الخ •

ويستعمل فولتير اسم بطرس للدلالة على تاريخ البابوات الذين ، على ما يقول هو ، يأكلون لحم الشعب • فقد كان شعارهم : « اقتلوا ، وكلوا لحم الشعب » • ويصيح فولتير في بطرس « يا بطرس، تقتل مسيحيين قدما لك الزكاة وتترك من صلبوا الهك على قيد الحياة » (١)، ويذكر فولتير ملاحظة اراسم من أن أول رئيس للمسيحية بدأ رسالته بانكار يسوع المسيح كما بدأ أول رئيس لليهود رسالته بصنع عجل ذهب لعبادته • ويقدم فولتير قائمة لأعمال البابوات في التاريخ : حدثت اربعون فتنة في عهد بطرس ، سبعة وعشرون منها أريقت فيها الدماء، قام اتين السابع باخراج جثة فورموز، البابا الذي سبقه ، وجز رأسه عن جسده • كان لسرجيوس الثالث المتهم بجرائم القتل العديدة ابن من ماروزي ورث البابوية • كان يوحنا العشر عاشقا لتيودورا ومات مخنوقا في سريره • لم يعرف يوحنا الحادي عشر ابن سرجيوس الثالث الا بفساد الأخلاق • أغتيل يوحنا الثاني عشر عند عشيقته • اشترى بنوا التاسع البابوية ثم باعها • كان جرجوار السابع سبب حروب دامت خمسمائة سنة • عندما يذكر اسم الاسكندر السادس يذكر معه نيرون وكاليجولا (٢) •

وعلى الرغم من هذا الثقل التاريخي للمسيحية لم يذكر يوسف المؤرخ اليهودي للقرن الأول ، لم يذكر شيئا عن المسيح مع أنه كان معاصرا له، ولا يذكر شيئا عن النجم الذي ظهر في السماء مبشرا بولادته ، أو عن الظلمات التي غطت وجه الأرض حين موته ، أو عن فتح القبور وخروج أهل العدل وبعثهم ، كل ذلك كان في الحقيقة تصويرا فنيا لما يريد كاتب الانجيل التعبير عنه ، عن طريق الكلام عن ضحك الطبيعة واشرافها ساعة الولادة ، وغضبها وحزنها ساعة الوفاة •

أما الدين الشامل فهو دين العقل ، أو دين الطبيعة البشرية ، أو دين القانون الطبيعي ، لا وجود للعقائد التاريخية أو الأسطورية فيه ، وهو الدين الذي يعتبر نتاجا طبيعيا للروح البشري لقد بدأت الانسانية بالشرك واتجهت الى التوحيد بعد أن استنار العقل ، وهي الفكرة الشائعة لدى جميع فلاسفة التنوير سواء في المانيا عند كانط وهردر ولسنج أم في فرنسا عند فولتير وفلاسفة دائرة المعارف الفلسفية • الدين الشامل نتيجة طبيعية لتطور الوحي الذي بدأ بمخاطبة الانسانية على مستوى تطورها البدائي ، بقانون الترغيب والترهيب (اليهودية) ، ثم خاطبها بالحب والدعوة الى العدل والاحسان (المسيحية) ، وأخيرا خاطبها بالعقل المستقل وبالطبيعة البشرية ذاتها وهي مرحلة فلسفة التنوير التي لا يحتاج فيها الانسان الا لعقله، ولا يعتمد فيها الا على فعله ، على ما يقوى المعتزلة في التراث الاسلامي القديم •

ويحاول فولتير وضع المبادىء العامة للدين الشامل ويجعلها في ثمان نقاط كما أجملها سبينوزا من قبل في سبع (٣) ، وهذه النقاط الثمان هي :

---

(١) Ibid., p. 349.

(٢) Dic. philo. p. 351.

(٣) أنظر مقالنا : سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ، تراث الانسانية (المجلد السابع ، عدد ١ ، مارس ١٩٦٩ •

١ ـ لا يقوم التدين على العناية الالهية أو خلود النفس •

٢ ـ التوحيد نتاج العقل المستنير •

٣ ـ عبادة الله بطريقة شاملة لا بالطقوس •

٤ ـ طاعة الله بطاعة قوانين الدولة لا بطاعة البشر •

٥ ـ الأخلاق هي الدين الصحيح •

٦ ـ رفض الأضاحي والقرابين البشرية •

٧ ـ الاعتدال ضد التعصب •

٨ ـ التمييز بين الدين اللاهوتي ودين الدولة•

والطبيعة البشرية عند فولتير ليست شريرة بطبعها على ما يقول هوبز أو خيرة بطبعها على ما يقول روسو ولكنها هي ذاتها • ان الانسان هو الانسان ، يكفيه أن يكون ذاته على ما يقول ريلكه في نصائحه للشاعر الشاب ، وكما يذكر برجسون في أخلاقياته •

والقانون الطبيعي عند فولتير هو قانون الأخلاق، أما القانون المصطنع فهي العقائد ، ولذلك كان الصوفية أقرب الى فولتير من اللاهوتيين ، وكان الأسينيون على حق اكثر من الفريسيين ان كل قانون خارجي من وضع البشر ، لذلك لا يجب التعصب في التطبيق لأن الطبيعة البشرية أعلى من كل قانون ، وفي هذه الحالة يكون الحكم بروح القانون أجدى من الحكم بنصه الحرفي• أما القانون المصطنع فانه يتكيف حسب الزمان والمكان: « عندما تتغير الحاجات تتغير القوانين وكل المحرمات في الدين قد تتغير حسب الظروف » •

رابعا : من الخرافة والتعصب الى العقل والتسامح :

ويستمر فولتير في نفس التيار الذي بدأه سبينوزا في هجومه على مظاهر الخرافة وجعلها أصلا من أصول التدين عند العامة ، ويرى أن كل ما يند عن شهادة الحس وعن العقل السليم أقرب الى الخرافة منه الى الدين ، فكل مايذكر في الأديان من معارج الى السماء ومن اطلاع على العوالم العليا ، كل ذلك أقرب الى الخرافة وأساطير القدماء منه الى حقائق الدين • فقد أوجدت النار حتى يطمئن العامة الى عقاب الأشرار في عالم آخر اذا هم افلتوا من العقاب في هذا العالم ، يقول رجل الدين : « يا صديقي ، اني لم أعد أصدق بالنار الأزلية مثلك ، ولكن من الأفضل أن تؤمن بها خادمتك وحائكك وكذلك مدعيك العام ! » كما يمكن استخدام بعض الخدع البيضاء من أجل السيطرة على العامة ، بل ويمكن تضليلها وايهامها، فيعطى الخبز الأبيض للسادة والخبز الأسود للعبيد، وهو رأى « بمبابف » في الحوار الذي عقده مع « أوانج » ممثل الفلاسفة الذي يريد الحقائق ذاتها دون ايهام أو تخييل ، فالأول يقسم الناس الى عامة وخاصة ، والثاني يمثل الخاصة ويرى أن العقل لا يتفق مع الخرافة حتى ولو كانت باسم التخييل والايهام •

والايمان عند فولتير لايصدق الا على المتناقضات أو على المستحيلات ، فالايمان على ما يقول بيك دي لاميراندول هو الاعتقاد بأشياء مستحيلة أو بأسرار تستعصي على الفهم ، فالحية تتكلم، والحمار يتحدث ، وحوائط أريحا تتساقط بعد سماعها صوت الأبواق • ان الايمان على هذا النحو، وعلى ما يقول اراسم ، هو الجنون • اما الايمان الحقيقي

فهو لا يند عن العقل ، ويصدق على أشياء معقولة (١) ، أى أن الايمان على هذا النحو هو الحكمة أو الفضيلة لأن الذى يخلص الانسان هو عمله لا ايمانه : « فالله يريد منا أن نكون فضلاء لا أن نؤمن بالمتناقضات ، والعقل هو وسيلة التخاطب ، كل من يريد أن يعلمنى شيئا لا بد أن يستخدم عقله » • أى أن العقل عند فولتير ، على مايقول المعتزلة ، هو أساس الشرع، وأن ماحسنه الشرع قد حسنه العقل من قبل •

ويعرف فولتير الحكم المسبق بأنه رأى دون برهان ، ويذكر أنواعا عديدة له ، فهناك أحكام مسبقة شاملة وضرورية مثل تعليم الأطفال وجود اله مجز منتقم ، وهناك أحكام مسبقة حسنة يقرها العقل بعد فحصها وبعضها سيء مثل احترام الناس للباسهم الخارجى بياضا أو سوادا ، وهناك أحكام مسبقة حسية مثل الأفكار الناشئة عن خطأ الحواس، وهناك أحكام مسبقة طبيعية مثل اعتبار القمر ساكنا ، وأحكام مسبقة تاريخية مثل تحريف الكتب المقدسة •• الخ • ويطالب فولتير باللجوء الى الحس السليم Common sense الذى عرفه من الفلسفة الانجليزية حتى يستطيع الانسان بنفسه القضاء على هذه الأوهام • واتباعا لما سنه ديكارت من قبل ، يطالب فولتير فى مقاله عن «اليقين» بالشك فى الموروث وفيما تلقيناه من سحر وكهانة وعرافة ، فطالما ظننا شيئا انه حق ولم يكن كذلك ، واليقين لا يتعدى اليقين الرياضى أو الطبيعى أو الخبرى عندما يتواتر الخبر المتفق مع مجرى العادات •

لذلك يرفض كثيرا من العقائد المسيحية على أساس أنها تقوم على الخرافة أو التعصب ، فينكر فولتير وجود الملائكة ، هذه الموجودات المتوسطة بين الله وبين البشر « نحن لا نعلم على وجه الدقة أين توجد الملائكة ، فى الهواء أم فى الخلاء أم فى الكواكب ؟ لم يشأ الله أن يخبرنا بذلك ! » كما يرفض فولتير تصور القدماء للسماء للكواكب ، هذا التصور الحيوى animiste الذى يجعل السماء ، على ما يقوله الفلاسفة المسلمون الاشراقيون ، مليئة بكائنات حية لها عقول ونفوس ، فالسماء هى « اله » القدماء بينما هى فى الحقيقة موضوع لعلم الفلك ، القول فيه ليس لهومير بل لكوبيرنيق ، والفصل فيه ليس لموسى بل لديكارت، كما يرفض فولتير التصور التدرجى للكون • ففى مقاله عن « سلسلة الموجودات المخلوقة » ينعى على أفلاطون تصوره للجدل النازل ، وعلى كل تصور تدرجى للكون ، ويراه من صنع الخيال • ان هذه السلسلة ، هذا التدرج المزعوم لا يوجد فى النباتات أو فى الحيوانات • يرفض فولتير اذن كل تصور أفلوطينى للطبيعة يجعلها متدرجة فى المراتب بين أعلى درجات الكمال وأقل درجات النقص ، كلما صعدنا الى أعلى اقتربنا من الكمال المطلق ، وكلما هبطنا الى أسفل اقتربنا من النقص المطلق • يرفض فولتير هذا الخليط من الدين والعلم ، من الاسطورة والواقع ، أو من الاشراق الصوفى والتفكير العقلى ، هذا التصور الذى وضعه أفلاطون وأفلوطين قديما وسار فيه الفلاسفة المسيحيون والمسلمون الاشراقيون على السواء •

أما عقيدة البعث فقد أنكرها الفريسيون والصدوقيون • والحقيقة أن البعث له معان كثيرة

---

(١) أنظر مقالنا : كانط ، الدين فى حدود العقل وحده «تراث الانسانية» (المجلد السابع ، عدد ٣ ، سبتمبر ١٩٦٩)

منها خلود المادة «جسم الانسان يتحول الى تراب، يطير في الهــواء ، ثم يقع على الأرض ويصــبح خضروات أو دقيق » •

أما الخطيئـــة الأولى فيرفضـها فولتــير كذلك ويعتبرها اهانة لله واتهاما له بالبربرية والتناقض، وذلك للتجــرؤ على القــول بأنه خلق الأجيــال البشرية وعذبها الى الأبد لأن أباهم الأول قد أكل فاكهة من حديقته • وهذه العقيدة لا وجود لهــا في الأســفار الخمســة أو فى أسفار الأنبياء أو فى الأناجيل الرسمية أو المنتحلة أو فى كتــابات آباء الكنيســة الأولى • هذه القصــة مجــرد رمز على ما يقول فيلون وقد رفضها الموحدون Unitaires والسوسينيون Sociniens

وأخــيرا يأتى فولتير الى المعجــزة • لقد ظن المؤمنون أن للرســـول قدرة على تيســير مظاهر الطبيعة ، فهو يسير السحب ، ويســقط المطر • وظن المسيحيون خاصة أنهم قد أوتوا قوة خاصة لطرد الشياطين أو لاحضار الملائكة ، وهو القوة التى كانت لدى المسيح والتى وهبها الحواريين من بعــده ، ويربط فولتير بين ذلك وبين السحر فى الديانات الشرقية ، ويبين أن آباء الكنيسة الأول كانوا يؤمنــون بالسحــر ، وعبــروا عن ذلك فى القصص التى رووها عن الشهداء ، وهى مزيج من الأســطورة والخــرافة • على أحســن الأحــوال لا تتعدى المعجــزة كونها مجــرد تشنجات عصبية تدعو للعجب • وبهذا المعنى كل شيء فى الطبيعة معجزة • أما ما يقصــده المتدينون من أنها خرق لقوانين الطبيعة وتحــويل الحجــر ذهبــا والعصى ثعبانا • على ما يقول الغزالى ، فذلك تناقض لأن قوانين الطبيعة ثابتــة لا تتغير ، واللــه عاقل حكيم لا يفعل شيئا بلا سبب ، فالمعجزة تظهر ضعف الله لا قوته ، وتغيره لا ثباته • ان التصديق بالمعجزات الحق للعار بالألوهية : « ان التصــديق بالمعجزات لا يتم الا عند شعب أمى ، المعجزة لا فائدة منها ، وأفعال الله تهدف كلها الى مصلحة البشر • لقد احتاجت الانســانية اليها قديما ولكنها لا تحتاجها اليوم » •

والايمان بقوانين الطبيعة الثابتة لا يعني على الاطلاق الايمان بالقضاء والقدر ، بل يعطى قوة على الفعل ويكون مدعاة لتأكيد الحرية الانسانية كما هو الحال فى تصور الأفغانى للقضاء والقدر • لقد رفض فولتير هذه العقيدة وكتب فى ذلك روايته المشهورة « صادق » ، وجعلها عقيدة المســلمين والمسيحين على السواء ، ومؤداها أن كل الحــوادث فى هذا الكون مرتبطــة فيما بينها بعلة ضرورية وبقضــاء لا مرد له ، فهو القدر الذى تحــدث عنــه هومير وشكسبير ، وهو أعلى من جوبيتر نفسه • ويرى فولتير أن ليبنتز هو الذى وضع الأساس النظرى لهذه العقيدة فى العصر الحــديث ، وهو ما سماه بالعلة الكافية • ويفند فولتير ذلك ويقول انه اذا كان لكل معلول علة فلا يترتب على ذلك بالضرورة أن يكون لكل علة معلولا ، أى أنه اذا كان لكل طفل أب فليس لــكل أب طفل • يرفض فولتير هذا الارتباط الضرورى بين العلة والمعلول لافساح المجال للحرية الانســانية • كما يرفض حــرية اللامبالاة التى صــاغها بيــوريدان وضرب المثــل بحماره • لأن الحرية عند فولتير تقوم على البواعث، أى أنها ارادة وعقل فى آن واحد •

ثم تأتى عقيــدة « العناية الالهية » لتؤكد نفس المعنى السابق ولكن بصورة مخففة • ويمكن أن

يقال ان الهدف من القاموس الفلسفي كله هو تفنيد هذه العقيدة التي يراها المسيحيون حافظة للكتب المقدسة من التحريف ، وراعية للكنيسة وناصرة لها ، ويستبدل فولتير بالعناية الالهية غائية الطبيعة • كذلك ينكر فولتير « الفضل الالهي » وهو صورة مخففة للعناية الالهية ، فالفضل الالهي يعطي الصحة عند توما الأكويني ، ويعطي الدواء عند كاجيتان أما انواع الفضل الالهي : الفضل المجاني ، الداخلي ، الخارجي ، المقدس ، الواقع ، الاعتيادي ، المعاون ، المؤثر ، الكافي ، كل ذلك مجرد ألفاظ لا تدل على شيء• كل ما فعله الفضل الالهي أنه حول المتدينين الى شحاذين ، وهو ما رفضه اقبال وسماه السؤال ، فالسائل يظن أن الله سيعطيه من فضله أو أن الآخر سيعطيه اذا ذكر له الله واذا تلاعب بعواطفه الدينية •

والخرافة مقرونة بالتعصب ، كل منهما يغذى الآخر ويثبته، وكما حاول فولتير القضاء على الخرافة فانه يحاول أيضا القضاء على التعصب بالتسامح الذى يتمثل في الروح الفلسفي : « لا يوجد علاج لهذا الداء المعدى الا الروح الفلسفية التي بانتشارها شيئا فشيئا تهذب أخلاق الناس وتحذر من التطرف ••• لا تكفي القوانين والدين ضد طاعون النفوس هذا ، فالدين ليس لها زادا شافيا ، بل يتحول الى سم فى الرؤوس المريضة » • لذلك يدين فولتير كل محاكم التفتيش ويقول « ان محاكم التفتيش كما نعلم اختراع مسيحى عجيب يجعل البابا والرهبان أشد قسوة ويجعل المملكة أكثر نفاقاً » ، وهى تلك المحاكم التى يقال ان القديس دومنيك هو أول من أقامها ، ويعتبر لويس البارامو أن الله هو أول من أقامها بعد خلق آدم ، وتابعه فى ذلك البابوات حتى أرسل البابا بونيفاس التاسع رسمه لحرق اليهود والمسلمين فى أسبانيا !

والذى يدعو للتعصب يدعو للاضطهاد ، ويدين كل من يخالفه فى الرأى بل ويقوم بتعذيبه• واذا كان المسيحيون قد لاقوا من الاضطهاد في القرون الأولى الشيء الكثير ، حتى سميت كنيستهم باسم كنيسة الشهداء ، فانهم قاموا بعد اعتناق الامبراطور قسطنطين المسيحية باضطهاد الوثنيين انتقاما من الرومان ، وأخذ الامبراطور المسيحى ينشر المسيحية بأسنة الرماح ، ويصدر الفرمانات باعتناق الدين الجديد ، واضطهاد كل من لا يريد الدخول فيه • وفى مقاله عن «الالحاد» يذكر فولتير أن كل من يظل على رأيه الحر أو يأتى بجديد يوصف بالالحاد • فعندما قال انكساجوراس بأن أبولو لا يقود الشمس أتهم بالالحاد ، وعندما أعلن أرسطو عن فكره العلمى اتهمه رجال الدين بالالحاد ، وعندما حاول سقراط تعليم الشباب وتنويرهم أتهم بالالحاد • كل من يفكر أو يخرج عن الموروث : ديكارت ، آرنو ، بسكال ، نيقول، مالبرانش يتهمون بالالحاد ، مع أن بيل قد أعلن فى قاموسه أن الوثنية أكثر خطورة على الايمان من الالحاد لأن الوثنية جهل بالله أما الالحاد فهو تصفية لمظاهر الخرافة فى الايمان الموروث • وقد لاحظ ذلك أيضا فلوطرخس فى تاريخه لليونان من أن التعصب أخطر على الايمان من الالحاد ، فالتعصب يؤدى الى الجريمة والالحاد يؤدى الى التنوير ، والمتعصبون جهلة والملحدون علماء • ولقد كان معظم أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى ملحدين نظرا وعملا ، لا يؤمنون بالعناية الالهية أو بحياة أخرى • ان هذه الجهالات هى التى تجعل أصحاء النفوس يثورون قائلين: « لو صور أستاذنا

لنا الله كأجهل الموجودات وأكثرها بربرية فالله غير موجود » أو يقولون : « ينسب أستاذنا الى الله سخافاتهم (الجهلة) ويصب عليه (الأحرار) جام غضبهم ، والله منزه عما يصفون ، فالله عاقل وخير ، ولكن البوليس الكنسى يسلمهم للجلادين باسم الله !

خامسا : النقد التاريخي للكتب المقدسة :

يعد فولتير من واضعى أسس النقد التاريخى للكتب المقدسة ، أو بتعبير أدق يعد مروجاً لما وضعه سبينوزا وريتشار سيمون وأوستريك من قبل ، وذلك لاعتماده على دراسات سابقة ، واستفادته من الابحاث التاريخية التى نشأت من قبل عن مصادر المسيحية • فمثلا يرى أن انجيل متى لم يكتب الا بعد أن استولى تيطوس على بيت المقدس ، ولا يرى فيه أثرا للوحى بل مجرد عمل من أعمال البشر ، كما يقارن فولتير بين الأناجيل الأربعة محاولا حل تعارضها ، ويذكر أوجه الاختلاف فى نسب المسيح بين متى ولوقا ، ويحاول كما حاول الاصوليون من قبل حل مشكلة التعارض بين الاخبار ويقرر مع السوسينين ان الاناجيل الأربعة كانت فى نشأتها كتباً سرية دونت فى القرن الأول بعد المسيح وخبئت فىالقرن الثانى وكان قصدها تعليم العامة ، لذلك يؤولها فولتير تأويلا رمزيا ، فقد كان الرمز هو الأسلوب الشائع فى النحل السرية فى الشرق القديم •

ويعرض فولتير لنشأة الكتبالمقدسة كمايعرض لها المحدثون ، فيرى أن الجماعة المسيحية الأولى قد عبرت عن نفسها فى كتابات عديدة لا حصر لها ، ثم جاء كتاب الأناجيل فألفوا بينها ، حتى ظهرت لدينا فى القرن الثانى عدة أناجيل طويلة مقسمة الى أجزاء خمسة حسب كتب موسى الخمسة ، لم ترض الكنيسة الا عن أربعة منها ذكرت بطريق مباشر أو غير مباشر ألفاظ الأب والابن والروح القدس ، أى أن هذا التقنين الذى حدث فى القرن الرابع لم يقم على مناهج نقدية للتعرف على صحة الرواية ـ كما هو الحال فىعلم الحديث ـ بل كان مقياس الاختيار عقائديا محضا، اذ تم التقنين بقرار من المجمع الكنسى • ويذكر لنا فولتير عددا من الأناجيل كانت معروفة ومذكورة فى كتب التاريخ القديمة ولكنها ضاعت وقد اكتشف بعضها مؤخرا مثل انجيل مريم ، انجيل الولادة ، الصيغة الأولى Protévangile لأنجيل يعقوب ، انجيل توما ، انجيل المصريين ، انجيل العبرانيين ، انجيل برنابا ، انجيل نيقوديموس ، والانجيل الخالد الذى يذكره يوحنا فى رؤياه • ويؤكد فولتير أنه كان هناك حوالى خمسين انجيلا اعتبرتها الكنيسة منحولة ، وكل هذه الأناجيل ، فى رأى فولتير ، من كتابات الجماعة المسيحية الأولى يظهر فيها تأثير الأساطير الشرقية القديمة وتكون موضوعا لتاريخ الأديان المقارن لا مصدر للوحى •

وفى مقاله عن « رؤيا يوحنا » يذكر فولتير أن أول من أشار الى هذه الرؤية هو جيستان الشهيد حوالى سنة ٢٧٠ م وينسبها للحوارى يوحنا ، ولا تتعدى هذه الرؤيا فى الحقيقة كونها نوعا من الفن الأدبى يكثر عند الشعوب الشرقية من أجل الحديث عن نهاية العالم ، ولم يذكر القديس كلمنت السكندرى الا رؤيا بطرس ، ويقرن أوريجين رؤيا يوحنا برؤى ربات الشعر عند الوثنيين ، ولم يدخل مجمع لاوذيقية Laodicée هذه الرؤيا ضمن الأسفار المقدسة • وقد ساعدت هذه الرؤيا على الشقاق لأن كل فرقة كانت ترى

نفسها الفرقة الناجية وأن من سواها الأعداء •

الحقيقة أن رؤيا يوحنا كتاب رمزى يعبر عن شعور الجماعة المسيحية الأولى ، الشعور بالاضطهاد أمام الامبراطورية الرومانية والرغبة فى الخلاص منها •

وبالنسبة للعهد القديم يؤكد فولتير ما قاله ريتشار سيمون وسبينوزا من قبل وهو أن موسى لم يكتب الاسفار الخمسة Pentateuque المعروفة باسمه ، بل ان عزرا هو الذى اعطاها الصياغة الأخيرة ، وأن الكنيسة نفسها لم تقرر أن موسى هو مؤلفها • ويذكر فولتير التناقضات بين أسفارها وأنها لم تذكر فى أى سفر آخر سواء فى المزامير أو فى الأسفار المنسوبة الى سليمان أو فى ارميا أو أشعيا أو أى سفر يعتبره اليهود صحيحا • ويدلى فولتير ببعض الحجج أهمها :

١ ـ لغة السفر لا تدل على أنه كتب فى مصر مع أن موسى قد عاش فى مصر •

٢ ـ يتحدث السفر عن بيئة حضرية ومصر بيئة صحراوية •

٣ ـ لو كان موسى كاتب الاصحاح الأول من سفر التكوين لما حرم قراءته على الشباب •

٤ ـ لو كان موسى مؤلف سفر الاحبار لما قال شيئا مناقضا له فى سفر التثنية •

٥ ـ تحدث موسى فى السفر عن مدن لم تكن موجودة فى عصره •

٦ ـ يذكر موسى ثمانى وأربعين مدينة وفى عصره لم تكن هناك الا عشر مدن •

٧ ـ يضع السفر قوانين للملوك اليهود مع أنهم لم يوجدوا فى عصره •

٨ ـ يذكر السفر جيش اليهود على أنه ستة آلاف مقاتل مع أن اليهود كلهم لم يزيدوا عن ألفين

أما فيما يتعلق بالتفسير فان فولتير يفسر أول آيات سفر التكوين على أنها مجرد أساطير لها ما يشابهها فى الأساطير الشرقية القديمة • فآية « فى المبدأ خلق الله السماء والأرض » موجودة عند الفينيقيين وقد تعلمها العبرانيون منهم بعد أن استولوا على قرارهم ، وتقابل السماء والأرض معروف عند الشعوب البدائية • أما أفكار التوراة عن « الروح » التى تعنى « ريح » أو « نفس » فانها أيضا مأخوذة من الكاتب الفينيقى سانشونياتون ، وكل الأفكار التى توحى بمادية العبرانيين مأخوذة من الشرق القديم •

أما سفر الملوك فانه لا يتعدى كونه تاريخا دنيويا للملوك بنى اسرائيل بعد أن تحول نظام الحكم لديهم من التيوقراطية الى الملكية ، بالاضافة الى التعارض الشديد فى التواريخ بين سفر الملوك وسفر أخبار الأيام ، والله لا يخطىء فى الحساب (١) •

ويرى فولتير أن سفر أيوب قد ترجمه العبرانيون من العربية ، وذلك لوجود كثير من الألفاظ الأجنبية فيه ، خليط من العربية والفينيقية ، ومؤلفه عربى عاش قبل موسى ، وكل ما فيه يوحى بالبيئة العربية : الخيام ، المراعى ، الترحال •• الخ ، وكل ما فيه من عقائد تدعو لاله واحد • ويستمد فولتير معلوماته هذه من الناقد الطبيب أوستريك المعاصر له ، الذى يفسر ذهاب بصر أيوب باصابته بمرض الجدرى • وقصة يوسف كلها قد ألفها العرب ، وهم معروفون بتأليف القصص الخيالية ولها ما يشابهها فى الحضارات الأخرى التى

---

(١) أنظر أمثلة لهذا الاضطراب الزمانى فى مقالنا «سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة»

تنسج القصص الخيالية حول موضوع الغواية مثل قصة هيبوليت .

وينكر فولتير أن تكون الأسفار المنسوبة الى سليمان له بالفعل ، فقد نسبت الأمثال الى أشعيا وألزيا وصونيا والياشين ويواقي. أما سفر الجامعة فمؤلفه فيلسوف أبيقورى مادى حسى ، أدخله مؤرخ ضمن الأسفار المقدسة . أما نشيد الانشاد فليس من سليمان بل سفر دنيوى محض . أما سفر الحكمة فهو ليشوع بن سيراخ .

وأخيرا يقارن فولتير بين سفر حزقيال ودواوين الشعراء ويرى أن كليهما موجه للعامة ومملوء بالتعبيرات الجنسية التى تميز الآداب الشعبية .

سادسا : نقد الطقوس والشعائر الدينية :

يرفض فولتير كل المظاهر الخارجية فى الدين من لباس وطقوس ومؤسسات ونظم وشعائر ، وهو أهم ما يميز المسيحية التاريخية كما رفضها سبينوزا من قبل ، وكانط فى عصره ، فقد نادى الأول بشريعة القلب ، والثانى بالدين الخلقى ، فالقسيس عند فولتير ليس كل من حلق رأسه اعلانا منه الدخول فى نظام الرهبنة أو من لبس ياقة بيضاء أو سوداء ، أو من لبس معطفا طويلا أم قصيرا ، أو من وضع حبلا على جانبه الأيسر ، بل هو الأب الروحى على ما يقول القدماء ، هو الفقير الذى لا يملك شيئا ، لا ذلك الأب الذى يزيد دخله على دخل أكبر الاقطاعيين ، والذى يزيد حرسه الخاص عن حرس الملوك. لقد أعطى الأب قسم الفقر ولكنه يعيش كالملوك ، وأعطى قسم العفة ولكنه يعاشر النساء ، وأعطى قسم الطاعة وهو يختان نفسه ، ويصرخ فولتير : « أنتم على حق ، أيها السادة ، استأثروا بالأرض ، فانها ملك القوى أو المخادع الذى يستولى عليها ، لقد استفدتم من زمن الجهل والخرافة والخداع كى تنتزعوا منا ميراثنا ولكى تطؤونا بالأقدام حتى تتخموا بلحم الاشقياء ، ولكن احذروا من ان يأتى يوم يسود فيه العقل » .

لذلك يرفض فولتير نظام الرهبنة ويعتبر أن « جنون الخصى هذا أكبر اساءة للطبيعة البشرية » خاصة اذا علمنا أن آية الرهبنة والعزوف على الزواج مجرد خبر آحاد فى انجيل متى (١٩:١٢) لا يشاركه فيه غيره من الأناجيل ، ونحن نعلم أن متى كان يبغى من كتابة انجيله اثبات حق الكنيسة واثبات المسيح المنتظر ولذلك كان انجيله كنسيا ecclésiastique ورسوليا messianique . لقد رفضت الكنيسةالأرثوذكسية والكنيسةالانجليكانية وكذلك البروتستانت نظام الرهبنة ، وتزوج الآباء ، وحاليا ، داخل الكنيسة الكاثوليكية ، يثور الآباء الهولنديون ويطالبون البابا بالسماح لهم بالزواج ، والا فان فولتير يعتبر الآباء « طاعون الانسانية ومصدر كل الشرور والآثام » (١) . كما أن الرهبنة هى سبب الصراع بين الكنيسة والدولة ، بين الدين والسياسة ، مع أن الصلاة ليست تسلطا ، والوعظ ليس طغيانا ، وانالتوحيد بين الدين والدولة لهو أبشع نظام ، لذلك يجب الغاؤه واقامة نظام آخر يخضع فيه رجال الدين لنظم الدولة ، ويخضع فيه الراهب للقاضى .

ويرفض فولتير الطقوس السبعة المشهورة : العماد ، المشاركة ، القداس ، الاعتراف، الرهبنة، الزواج ، الصلاة الأخيرة للمحتضر . ففى العماد يظن الناس ان غسل البدن يؤدى الى طهارة

(١) Dic. philo. p. 163.

الروح . يقول فولتير : « العماد يطهر كل شيء ، أستطيع اذن أن اقتل زوجتي وابني وكل اقاربي ثم أعمد نفسي فأدخل الجنة » . ويظنون أن لبس البياض والمشاركه في الصلاة لأول مرة تعني الانتساب الى الكنيسه الى الأبد ، ويظنون أن اقامة القداس يعني ارضاء الله والرضا عن النفس ، مع أن الله لم يامر بتعطيل مصالح البشر من أجل القداس ويمكن العمل يوم السبت ويوم الأحد ويوم الجمعة ، ويظنون أن الاعتراف أمام القسيس هو تمام التوبة وتأكيد للمغفرة ، وهو في الحقيقة استجواب قانوني أمام غير القضاة ، قد يكون من أخص خصائص الانسان ، ويظنون أن الصلاة الأخيرة على الميت تضمن له الجنة أو تخفف عنه الحساب . أما طقس الختان عند اليهود فقد أخذوه من عادات المصريين القدماء على مايذكر هيرودوت

أما عن باقي الشعائر ، فيرى فولتير مثلا أن الصيام قد يكون مفيدا للاقلال من التخمة أو قد يكون نتيجة لفقدان الشهية ، ولكنه ليس من الشعائر الدينية بل أخذه اليهود ، والمسيحيون وراءهم ، من عادات المصريين القدماء . « الصيام دواء للفقراء لا يتعاطاه الأغنياء » .

خلاصة القول ان فولتير يعتبر الطقوس والشعائر والعبادات والاحتفالات الدينية جرائم محلية يعاقب عليها كل من يزاولها لأنها ضارة بالمجتمع خاصة اذا تمت في صورة أضاح وقرابين » . انى أعلم أن الله ليس بحاجة الى قرابيننا أو الى صلواتنا » . ان عبادة الله لا تتم بالطقوس أو بالمعجزات أو بالسحر ولكن بالسلوك الشامل أي بالعمل الخلقي .

سابعا : هدم الميتافزيقا والفلسفات المثالية :

اذا كان الهدف الأول من القاموس الفلسفي ، وهو اعادة دراسة نشأة المسيحية ونقد العنايه الالهية ، قد طغى على الهدفين الآخرين ، أعني هدم الميتافيزيقا والدعوة للسلام، فذلك لأن الدين في القرن الثامن عشر أو بتعبير أدق رجال الدين في تحالفهم مع الملكية والاقطاع كانوا ما زالوا حجر عثرة في سبيل التقدم ، لذلك خصص فولتير للهدف الأول معظم مقالات قاموسه الفلسفي، وتوارى الهدفان الفلسفي والسياسي . ومع ذلك نستطيع من بعض المقالات أن نرى هجوم فولتير على الميتافيزيقا وعلى الفلسفات المثالية والدعوة الى العلم والى الوثوق بالمعرفة الحسية ومناصرة الاتجاه المادي ورفض الأساطير وانكار الغيبيات والايمان بالتقدم باعتباره اله القرن الثامن عشر . ولقد تشبع فولتير بالفلسفة الانجليزية المادية التي قوت فيه هذه الدعوة ، لذلك رفض الدخول في متاهات الفكر التي لا يستطيع الانسان أن يصل فيها الى شيء يقيني ، ولا يجد حرجا في بيان حدود الذهن الانساني وامكانياته التي لا تستطيع التعرف على موضوعات الميتافيزيقا . فاذا كان مونتي قد قال من قبل « ماذا أعلم ؟ » فيجب ان نقول نحن « ماذا نجهل ؟ » .

لقد أنكر فولتير وجود الأفكار الفطرية التي حاول ديكارت اثباتها ، واعتمد في ذلك على لوك، وذلك في معرض رفضه لكل المسلمات السابقة ، ولكل ما هو معطى من قبل سواء أكان ذلك من الخارج كما هو الحال في الدين أو من الخارج كما هو الحال في الأفكار الفطرية .

كذلك ينقد فولتير نظرية مالبرانش في رؤية كل شيء في الله ، فالفكرة عن فولتير مجرد صورة ذهنية ، بل ان الأفكار المجردة نفسها

مردها الى الموضوعات الحسية التى نشأت هذه الأفكار عنها • كذلك يرفض فولتير مثالية بركلى التى حولت الاشياء الى مجموعة من الافكار أو مثالية ليبنتز التى حولت الاشياء الى مجموعة من الذرات الروحية • الاشياء ، عند فولتير ، موجودة فى العالم الخارجى وهى أكثر من الانطباعات الحسية أو التصورات العقلية •

وقد هاجم فولتير ليبنتز من قبل فى فلسفته التفاؤلية وفى رؤيته هذا العالم على أنه أفضل العوالم الممكنة ، وكتب فى ذلك روايته الخالدة « كانديد » • يرفض فولتير هذه الفلسفة التى تنكر وجود الشر والتى ترى فى كل شىء خيراً وتبرر كل ما يحدث فى العالم من شرور وآلام ، وهى الفلسفة التى ستظهر عند ليون برنشيج بعد ذلك والتى سيرفضها الوجوديون المعاصرون ، مثل سارتر وكامو ، الذين يؤكدون وجود الشر •

أما ما يقوله الفلاسفة المثاليون ، قدماء ومحدثون عن الخير الأقصى باعتباره غاية البشرية ومناط سعادتها فانه محض خيال ، فالسعادة توجد فى لحظة معينة وفى مكان معين ، هذا الخير الأقصى من قبيل الأحلام والأحلام من قبيل الخرافة •

ويظهر الاتجاه المادى عند فولتير فى مقاله عن «النفس» • فالنفس هى كل ما يحرك أو يحيى• وقد اعتبر القدماء أن للنبات نفسا نباتية وأن للحيوان نفسا حيوانية ، أى أنها مجرد قوة أو غريزة ، ومع أن هذا التصور بدائى محض لا يتعدى تفكير من يقول : أنا أسير بقدمى ، وأهضم بمعدتى ، وأفكر برأسى ، الا أنه يدل على حقيقة واقعة وهى أن النفس لها مظهر حسى • لقد تصورها القدماء على أنها مادة خفيفة ، النفس ، النار ، الأثير ، الذرات •• الخ • كذلك لم يتحدث العهد القديم عن خلود النفس ، واعتقد الفريسيون بتناسخ الأرواح ، وآمن الصدوقيون بفنائها مع البدن ، وصدق الاسينيون بحلول الأرواح فى الأبدان ، وتصور آباء الكنيسة النفس فى صورة بدنية ، وجعلها سبينوزا فكرة البدن • كل يوحى بأن النفس والبدن حقيقة واحدة • وفى مقاله عن « التربية الدينية الصينية » يعرض فولتير لموضوع النفس فى صورة حوار بين كو وكوزو ، الأول ينكر خلود النفس ويعتبره كلمة اخترعها الناس كى يعبروا بها على نحو غامض وعن نقص فى الشجاعة عن مكونات حياتنا ، ويفسرون بها كل شىء فى الحياة ، فالمادة لها نفس، والنبات له نفس ، والحيوان له نفس ، الكواكب لها نفوس ، وكل شىء يرجع فى النهاية الى الله ، والثانى يرى أن الايمان بخلود النفس رفض للفناء ورغبة فى الحياة وضرورة لاثابة المحسنين وعقاب المسيئين • لقد عرف القرن الثامن عشر كله فى فرنسا بهذا الاتجاه الحسى المادى ، الذى كان رد فعل على أساطير اللاهوت وعلى مثاليات القرن السابع عشر ، لذلك تميزت فلسفة التنوير فى فرنسا عنها فى ألمانيا ، فقد كانت اكثر حسما مع العقائد الدينية والفلسفات المثالية ، فى حين أن فلسفة التنوير فى المانيا حاولت اعادة تفسير العقائد تفسيرا فلسفيا ، كما حاولت التوفيق بين فولف وهيوم ، بين ليبنز ولوك ، أى بين المثالية والحسية، كما فعل كانط •

ثامنا : الدعوة للسلام وللنظام الجمهورى :

والهدف الثالث من القاموس الفلسفى هو الدعوة للسلام وللنظام الجمهورى وللمساواة بين الأفراد داخل الدولة • ففولتير داعية للسلام ،

يدين الحروب في جميع صورها ، لا يفرق بين الحرب العدوانية والحرب الدفاعية ، فقد كانت الحروب في عصره في معظمها حروبا للعدوان ، يحارب الملوك من أجل مصالحهم الخاصة، ويحارب رجال الدين للمحافظة على مكاسبهم وسلطانهم • الحرب والمجاعة والطاعون هي الشرور الثلاث التي تهدد البشرية •

ويرى فولتير أن أفضل نظام سياسي هو ذلك الذي يقوم على العقل ، وهو النظام الجمهوري الذي يقوم على الديموقراطية، أي على الاعتراف بحريات الأفراد ، وعلى المساواة وهي المبدأ الأول والثالث للثورة الفرنسية • ان الجمهورية هي أفضل نظام ملائم للطبيعة البشرية لأن التيوقراطية تنتهي الى الطغيان ، ولا يمكن طاعة البشر باسم طاعة الله ، بل لا بد من طاعة البشر باسم قوانين الدولة • والملكية نظام ينتهي الى الطغيان ، اذ لا يرعى الملك الا مصالحه الخاصة • يدين فولتير اذن الطغيان في كل صوره ، الالهي أو البشري ويقول : « يصيح الدكتاتور بأنه يحب وطنه وهو في الحقيقة لا يحب الا نفسه (١)» لذلك ينكر فولتير على رجال الدين تدخلهم في شئون الدولة ، ويطالب الكهنوت بالتخلي عن سلطاته السياسية ، ويدعو الى علمانية الحكم ، ويهاجم ادعاءات الكنيسة وحقوقها التي تدعيها من أجل السيطرة على البشر ، ودعوتها الى الحروب والفرقة والفتن والشقاق • ويضع فولتير مبدأ حرمة الشخصية الانسانية ، الذي يتحقق في النظام الجمهوري ، ويثبت حرية الفكر وحق الفرد في التعبير عن رأيه ، ويدعو الى احترام الانسان من أجل الانسان بصرف النظر عن دينه

(١) Dic. philo. p. 333.

أو جنسه أو عنصره أو منصبه أو مذهبه، وبالتالي يقوم نظام الحكم على تشريع العقل العام وعلى الأخلاق الأبدية ، النظام الجمهوري اذن هو النظام الأبدي الشامل أو نظام مواطني العالم ، الذي حاول نابليون تحقيقه في اقامة جمهورية عالمية •

وفي النظام الجمهوري لا ينقسم الناس الى سادة وعبيد • ففي مقاله عن « السيد » يقول فولتير : « يجب أن نتفق على أن كل الناس قد ولدوا متساوين ، ثم أصبح النصف سادة عن طريق القوة والدهاء ، وأصبح النصف الآخر سادة عن طريق القوانين » • يهدف القاموس الفلسفي الى تحقيق غرض سياسي وهو المساواة الديموقراطية التي صاغها اعلان حقوق الانسان سنة ١٧٨٩ • يقول فولتير : « يولد البشر متساوين في الحقوق ويحيون كذلك » • وفي مقاله عن « المساواة » يعلن أن الانسان فيه نفحة من الله وهو العقل ، وأن هذا العقل يمنعه من أن يكون عبدا على الأرض • لذلك يستحيل أن يستعبد انسان انسانا مثله •

لذلك انتهى القاموس الفلسفي نهاية طبيعية في مبادىء الثورة الفرنسية الثلاث ، وظل وقتا طويلا دستورا لها ، ويعد بالفعل أعظم كتابات القرن الثامن عشر من حيث الجرأة والحسم والجذرية ، وهي متطلبات كل ثورة تود أن تبدأ وأن تستمر•

تاسعا : نصوص مختارة من القاموس الفلسفي :

١ ـ **العقائد والأخلاق** : « الأخلاق واحدة ، لأنها من عند الله ، والعقائد مختلفة لأنها من عند البشر • لم يعلم المسيح أية عقيدة ميتافيزيقية ، ولم يكتب أية دراسات لاهوتية • لم يقل أبدا :

أنا متحد في الجوهر، لي ارادتان وطبيعتان وشخص واحد • ترك لأنصار القديس فرنسوا واليعاقبه، الذين أتوا بعده باثنى عشر قرنا، الجدل لمعرفة اذا كانت أمه قد حملت وبها الخطيئة الأولى أم لا• لم يقل أبدا ان الزواج علاقة حسية لشيء غير محسوس، ولم يقل أى كلمة عن الفضل المصاحب، ولم يؤسس نظام الرهبنة أو محاكم التفتيش، ولم يأمر بشيء مما نراه الآن •

لقد أعطى الله معرفة العدل والظلم فى كل زمان قبل أن تأتى المسيحية، ولم يغير الله علمه، وما كان له أن يغيره • ان جوهر نفوسنا ومبادىء عقولنا وأخلاقياتنا تظل كما هى منذ الأزل • ماذا تفيد التفرقة التى تقوم على هذه التفرقة والاضطهاد الذى يقوم على هذه العقائد ؟ ان الطبيعة لتخاف وتثور فى رعب ضد كل هذه البدع البربرية وتصيح فى الناس : كونوا عادلين لا سفسطائيين، مضطهدين للغير (القاموس الفلسفى، ص ٢٧٠ - ٢٧١) •

« حسنا، أريد أن أعيش ممارسا لهذه الفضائل كلها وعابدا الها بسيطا شاملا بعيدا عن أوهام السوفسطائيين وأخطار المتنبين • سأجعل حب الجار فضيلتى وأنصبها على عرشى، وأجعل حب الله دينى، وسأحتقر الاله فو، ولاوتسى، وفشنو الذى تجسد مرات عديدة لدى الهنود، يلعب مع الغزال الطائر ••• يا لشقاء شعب غبى متوحش يظن أن له الها خاصا به، انه لتجديف • ماذا ! تضىء نور الشمس جميع الأعين، ونور الله لا يضىء الا شعبا صغيرا فظا فى ركن من أركان الأرض ! شىء مريع ! غباء فظيع ! يتحدث الله فى قلوب البشر أجمعين الذين يرتبطون فيما بينهم، وهم أطراف المعمورة، برباط الاحسان » (ص ٨٤) •

« ما أبسط الأمور ! ما أبسط تعليم أخلاق كثيرة وعقائد قليلة، هذه الأخلاق التى تجعل الناس عادلين دون أن توقعهم فى التناقض، والتى تأمرهم بألا يصدقوا المستحيلات أو المتناقضات أو الاهانات التى تلقى على الله أو الاخطار التى تهدد الجنس البشرى، والتى لا تهدد بالعقاب كل من يستعمل الحس السليم، ولا تجعل الناس يؤكدون وجودهم عن طريق الجلادين واغراق الأرض فى الدماء من أجل سفسطة لا معنى لها، والتى بسبب تداخل أو تشابه لفظى أو مجموعة من القوانين لا تجعل قسيسا ينكح المحرمات، ويدس السم، وتجعله حاكما أو الها، والتى لا تجعل الملوك خاضعين لهذا القسيس، تلك التى تدعو الى عبادة الله والى العدل والى التسامح والى الانسانية » (ص ٣٦٧) •

٢ - الدين الطبيعى والدين المصطنع : لقد منع الدين الطبيعى آلاف المرات المواطنين من ارتكاب الجرائم، فالنفس الطيبة لا تقوى على ذلك، والنفس الرقيقة تخشاه لأنها تتمثل أمامها الها عادلا ••• أما الدين المصطنع فانه يشجع على جميع مظاهر القسوة التى تقوم بها الجماعة كما يشجع على المؤامرات والفتن وعلى أعمال القرصنة وقطع الطرق، وغزو المدن، والنهب والسلب والقتال، ويسير كل فرد نحو الجريمة مسرورا تحت حماية قديسه » (ص ٢٣٠ - ٢٣١) •

٣ - القانون الطبيعى : « هناك قانون طبيعى مستقل عن الاتفاقات الانسانية : يجب أن يعود على ثمرة لعملى، احترام الأب والأم، عدم

الاعتداء على حياة الجار ، عدم اعتداء الجار على حياتى ... يبدو لى أن معظم الناس قد أخذوا من الطبيعة حسا مشتركا لسن القوانين ، ولكن كل الناس ليس لديهم العدالة لوضع قوانين خيرة .. يجب ان يبيع كل مزارع فائض قمحه لجاره ، ويجب أن يجمع كل دين أكثر مما يفرق أو يضطهد أو يتعصب » (ص ٢٨٥) .

٤ ـ **الدين الشامل** : « ان دين أهل الفكر دين رائع ، خال من الخرافات والأساطير المتناقضة . وخال من العقائد المهينة للعقل والطبيعة ... يقتصرون على عبادة الله مع جميع حكماء الارض » (ص ـ ١٠٨ ـ ١٠٩) .

أومن بالله واحد لانه لا يمكن ان توجد الا نفس واحدة لهذا الكل الكبير ، وبوجود واحد يهب الحياة وخالق واحد .

« أومن بالله وحده وأحبه ، وأعتقد أنه يشرف فى كل نفس تأتى هذا العالم كما يقول القديس يوحنا ، وأعنى بذلك كل نفس تبحث عن الطريق الصحيح .

أومن بالاله الآب ، القادر على كل شىء ، لانه اله الطبيعة والبشر جميعهم الذين هم أبناؤه . أومن بأنه هو الذى يحييهم جميعا ، وهو الذى يقرر مصائرنا فى الحياة على السواء ، وهو الذى أعطاهم نفس المبادىء الاخلاقية التى يدركونها عندما يفكرون ، وأنه لم يفرق بين أبنائه مطلقا الا فيما يتعلق بالرذيلة والفضيلة .

أومن بأن الصينى العادل الخير أفضل لديه من فقيه أوربى متحذلق متكبر .

أومن بأن الله هو الآب لنا جميعا ، ونحن ملزمون بأن نعتبر البشر كلهم اخوة لنا .

أومن بأن مرتكب الاضطهاد انسان مرذول وأنه يأتى مباشرة بعد القاتل بالسم وقاتل الأب .

أومن بأن الجدل اللاهوتى أضحوكة مزرية ووباء خطير يهدد البشرية ، يأتى مباشرة بعد الحرب والطاعون والمجاعة والجدرى .

أومن بأنه يجب أن يؤجر رجال الدين ، وأن تدفع لهم أجور مرتفعة لأنهم خدام ومعلمو الأخلاق وممسكو سجلات المواليد والوفيات ، ولكن لا يجب اعطاؤهم ثروات أصحاب المزارع أو نصيبهم فى حق الأمراء لأن كلا النصيبين مفسدة للنفس ، وأنه لا يوجد ما يحث على الثورة أكثر من رؤية اكثر الناس غنى وزهوا يبشرون بالتواضع وحب الفقر لمن لا يملكون اكثر من مائة قرش رهنا .

أومن بأن كل رجال الدين الذين يقومون بخدمة الكنيسة يجب أن يتزوجوا لا من أجل الحصول على امرأة شريفة تقوم بشئون المنزل فقط بل ليكونوا من أفضل المواطنين ولتكوين رعايا فضلاء للدولة ولتنشئة أطفال كثيرة حسنة التربية .

أومن بأنه يجب القضاء على الرهبان وأن فى ذلك خدمة كبيرة للوطن ولأنفسهم ، فهم قوم مسخهم « سيرسيه » الى خنازير ، ويجب على «أوليس» الحكيم ارجاعهم الى الصورة الانسانية » . (ص ١٥٣ ـ ١٥٤) .

٥ ـ **الخرافة والمعجزة** : « مثل الذين يعتقد بالخرافة بالنسبة للمحتال كمثل العبد الطاغية . بل ان الذى يصدق بالخرافة يحكمه التعصب ويصبح متعصبا . نشأت الخرافة فى الوثنية التى تبنتها اليهودية ثم [illegible] الكنيسة المسيحية فى العصور

الأولى . لقد اعتقد آباء الكنيسة كلهم بلا استثناء بقوة السحر . لقد أدانت الكنيسة السحر ومع ذلك فهي تؤمن به ، ولم تطرد السحرة لأنهم مجانين مخدوعين بل لأنهم كانوا يتعاملون مع الشياطين .. الخرافة في كل مكان . يحافظ المسيحيون على رفات القديسين ... كلما قلت الخرافة قل التعصب ، وكلما قل التعصب قل الشقاء .. » (ص ٣٩٦) .

« كل شيء معجز في قصة الطوفان : معجزة سقوط الأمطار أربعين يوما حتى غطت أركان المعمورة الأربع ، وارتفاع الماء حتى وصل الى خمسة عشر ذراعا فوق أعلى قمم الجبال . وانها معجزة أن كان في الجبال شلالات وأبواب وفتحت ، ومعجزة أيضا أن يدخل كل الحيوانات من اركان المعمورة الأربع في السفينة ، ومعجزة أيضا أن يجد نوح مايغذيهم به مدة عشرة أشهر ، ومعجزة أيضا أن تبقى كل الحيوانات مع غذائه في السفينة ، ومعجزة ان معظمها لم يهلك ، ومعجزة انهم وجدوا ما يأكلونه عند خروجهم من السفينة ومعجزة أيضا أن يستطيع « لوبلتيه » ان يفسر كيف استطاعت كل هذه الحيوانات أن تعيش بطريقة طبيعية داخل سفينة نوح ... كل ذلك معجزات تفضل الله باجرائها لشعبه المختار ، أسرار عميقة لا يستطيع الذهن الانساني سبر أغوارها ! » . (ص ٢٥١) .

٦ ـ الحرية والتسامح : « ان رجال الفكر الذى أدوا خدمات جليلة لعدد قليل منتشرون في العالم ، متعلمون منغلقون على أنفسهم ، وهم العلماء الحقيقيون الذين لا يغادرون حجرات عملهم ، لا يناقشون ولا يحاضرون في الجامعات ، يقولون نصف الحقيقة في المجامع العلمية ، كل هؤلاء مضطهدون . لقد خلق جنسنا البشرى البائس بحيث أن كل من يسيرون في الطريق مطأطئي الرؤوس يرمون بالحجارة كل من يدلون على طريق جديد ... أثيروا البشر وستداسون بالأقدام .. لقد أجبر ديكارت على مغادرة وطنه ، وأهين جسندى ، ونفى آرنو ، وعومل كل فيلسوف وكأنه نبى من اليهود .

ان اكبر شر يصيب رجال الفكر والأدب هو أن يحاكمهم الأغبياء ، ويراقبهم الجهلة ، فالغبى الجاهل يجمع بين الجهل والحسد والانتقام والتعصب . ان رجل الأدب بلا عون . انه كالسمك الطائر ، اذا ارتفع في الهواء أكله الطير ، واذا هبط الى الماء ابتلعته الأسماك ...

ان الأمر بيديك ان أردت أن تتعلم كيف تفكر . لقد ولدت ولديك روح . أنت طائر في قفص محاكم التفتيش . لقد قصت محاكم التفتيش جناحيك ولكنهما يمكن أن يعودا اليك . ان من يجهل الهندسة يمكن أن يتعلمها ، كل انسان يمكنه أن يتعلم . من العار أن يعيد الانسان نفسه لمن لا نأمنهم على وضع المال بين أيديهم . تشجع وفكر بنفسك ... عندما يكون الناس في حفل ، يقول كل منهم رأيه دون أن يكون في ذلك أى تعد على السلام . ولكن اذا أجبر راع وقح لشاعر ردىء كل الناس ذوى الأذواق الجيدة على استحسان ما يرونه قبيحا سيصفر الجميع ويتقاذف الفريقان بالبطاطس على الرؤوس كما حدث في لندن . انهم طغاة الروح ، هم سبب جزء من شرور العالم . لم نكن سعداء في انجلترا الا بعد أن تمتع كل فرد بحقه في أن يقول ما يشاء » . (ص ٢٧٢) .

« التسامح هو قوام الانسانية • كلنا خطاؤون، فلنسامح أخطاء بعضنا بعضا ، هذا هو أول قانون الطبيعة ••• الشقاق هو اكبر شر يصيب الجنس البشرى والتسامح دواؤه ••

لقد رأينا دائما المتعصبين يضطهدون الفلاسفة ، ولكن هل يجوز أن يتدخل أهل الفكر ويطالبون المتعصبين بشحذ أسلحتهم ضد اخوتهم ، هذه الأسلحة التى يقتلون بها الواحد بعد الآخر ؟ »• (ص ٣٤٦) •

٧ ـ الطقوس والشعائر « الصيام » : ان البابوى الغنى الذى يضع أمامه سمكا بخمسمائة فرنك سيكون له الخلاص، أما الفقير الذى سيموت جوعا ، الذى يأكل قريصات بمليم واحد سيكون له العذاب !

لماذا يجب طلب الاذن من الأسقف حتى يأكل الناس البيض ؟ لو نهى ملك شعبا عن أكل البيض ألا يكون اكثر الطغاة مدعاة للسخرية ؟ أى نفور عجيب هذا الذى عند الأساقفة من العجة !

هل نصدق أن عند البابويين محاكم بلغت حدا من البلاهة والجبن والبربرية أن تحكم بالموت على المواطنين الفقراء الذين لم يرتكبوا جرما سوى أنهم أكلوا لحم الحصان فى أيام الصيام ؟ هذا صحيح ، وبين يدى حكم بهذا المعنى • وأغرب من ذلك أن القضاة الذين نطقوا بمثل هذا الحكم اعتقدوا أنهم أرقى من « الاير كوا » (بعض قبائل الهنود الحمر) !

أيها الآباء الأغنياء القساة ! من تأمرون بالصيام؟ أتأمرون الأغنياء ؟ انهم لا يصومون ! اتأمرون الفقراء ؟ انهم يصومون طيلة العام • ان المزارع البائس لا يعرف طعم اللحم وليس لديه مايشترى به سمكا • أنتم مجانين ! متى ستقضون على قوانينكم المتناقضة » • (ص ٦٣) •

العماد : « من الواضح لكل من يريد التفكير دون أحكام مسبقة أن العماد ليس علامة على الفضل الالهى وليس خاتما للعهد بل مجرد علامة للمهنة

ان طقس العماد ليس ضروريا لا من أوامر الدين أو كوسيلة لتحقيقها • ان طقس العماد لم يقمه يسوع المسيح ، ويستطيع المسيحى الاستغناء عنه دون أن يلحق به أى ضرر • لا يجب تعميد الأطفال والبالغين أو أى انسان على الاطلاق • كان يمكن أن يكون للعماد فى نشأة المسيحية منفعة لهؤلاء الذين تركوا الوثنية حتى يعلنوا عن ايمانهم الجديد ، ويكون علامة صحيحة عليه ، ولكنه ليس له أية فائدة الآن ولا يؤدى الى أية منفعة •

٨ ـ الدين والدولة : ١ ـ لا يصير لأى قانون كنسى قوة القانون الا اذا أقرته الدولة صراحة ، وعلى هذا النحو لم ينشأ صراع بين أثينا وروما لأن الصراع الدينى لا ينشأ الا بين دول بربرية أو أصبحت كذلك •

٢ ـ من حق القاضى وحده ان يسمح أو أن يحرم العمل فى أيام الأعياد لأنه ليس من حق رجال الدين منع الناس من زرع حقولهم •

٣ ـ ان كل ما يتعلق بالزواج من حق القاضى، وتقتصر مهمة رجال الدين على المباركة •

٤ ـ ان القرض بالفائدة ينظمه القانون لانه هو السائد فى التجارة •

٥ ـ خضوع رجال الدين للحكومة فى كل المحالات لأنهم رعايا فى الدولة •

٦ ـ انه لعار مزر أن يدفع الناس للقسيس الأجنبي ريع السنة الأولى من الأرض التي أعطاه المواطنون لقسيس من أهل البلد .

٧ ـ لا يحق لأي قسيس أن يسلب أي مواطن حقوقه مدعيا أنه قد أخطأ لأن القسيس المخطيء يجب أن يصلي للمخطئين لا أن يحاكمهم .

٨ ـ يجب أن يدفع القضاة والعمال الزراعيون والقساوسة نصيبهم في نفقات الدولة لأنهم كلهم رعايا الدولة .

٩ ـ لا توجد الا موازين واحدة ، وقياس واحد ، وعادة واحدة .

١٠ ـ الشنق غير مفيد ، في حين أن الانسان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة مفيد للوطن ودرس حي لغيره .

١١ ـ يجب أن يكون القانون واضح وواحدا ودقيقا ، وأن كل تفسير له اخراج له عن معناه .

١٢ ـ ليس هناك أبشع من الرذيلة .

١٣ ـ يجب أن تكون الضرائب بنسبة الدخل .

١٤ ـ لا يجب أن يكون القانون متعارضا مع العرف ، ذلك لأنه اذا كان العرف صالحاً ، لم تكن للقانون أية قيمة » . (ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠) .

د. حسن حنفي